

صناعة ابن الرومي

يتفق لقارئ الشعر أن يعرض له في مطالعته بيت غير منسوب إلى صاحبه فينسبه إلى شاعر معروف عنده ثم يجد بعد البحث أن فراسته قد صدقت وأن البيت لذلك الشاعر بغير خلاف، ولكنه قد يعلم السبب الذي دعاه إلى نسبة البيت إليه وقد يتعذر عليه أن يرد ظنه إلى سبب غير البداهة التي لا تعلق. لأن سمات الشعراء التي تبدو في قصائدهم وأبياتهم بعضها ظاهر يسهل تتبعه والاستدلال عليه وبعضها خفى يجرى في الكلام مجرى الملامح في الوجوه. تعرفها وتعرف بها الأبناء والآباء ولكنك لا تردّها إلى سبب محدود.

وليس كل الشعراء ذوي ملامح واضحة يعرفهم بها القراء، ففي العربية مثلاً ألوف من الشعراء لا تعد منهم مائة بين أصحاب الملامح الواضحة التي تعرفهم بها في القصيدة الواحدة بله البيت الواحد. وفي طليعة هؤلاء من الشعراء المحدثين - غير ابن الرومي - المتنبي والمعري والشريف الرضي، والبقية درجات في هذه الخصلة تعرفهم بسهولة حيناً، ولا تعرفهم حيناً إلا بعد جهد وتحقيق.

بعض هذه الملامح أو العلاقات نفسى لا نعود إليه في هذا الفصل لأنه سبق في مواضع من الفصول المتقدمة، وبعضه لفظى يرجع إلى الصياغة وأسلوب التعبير والنزعة الفنية التي ينفرد بها الشاعر بين الشعراء وأن تساوا في الإجابة كما ينفرد الجميل بين ذوي الجمال بسمة خاصة تستحب فيه وإن تساوا كلهم في الجمال. وهذا الذى نعيه بالصناعة ونتم به مباحث هذا الكتاب.

فالعلاقات البارزة في قصائد ابن الرومي هي طول نفسه وشدة استقصائه

المعنى واسترساله فيه، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظاميين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتاً متفرقة يضمها سمط واحد، قل أن يطرد فيه المعنى إلى عدة أبيات وقل أن يتوالى فيه النسق توالياً يستعصى على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير. فخالف ابن الرومي هذه السنة وجعل القصيدة "كلاً" واحداً لا يتم إلا بتمام المعنى الذى أراده على النحو الذى نراه، فقصائده "موضوعات"

كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهى حتى ينتهى مؤادها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها، ولو خسر فى سبيل ذلك اللفظ والفصاحة.

ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سبباً من أسباب الإطالة ولكنه لم يكن كل السبب، لأن ابن الرومي كان يطيل القصائد حفاوة بالمدوحين وإكباراً لشأنهم وإظهاراً لعنايته بإرضائهم، وكان يرى فرضاً عليه للمدوح أن يستصعب ويستسهل، فإذا طرق القوافى السهلة اعتذر من تقصيره كما قال لعبيد الله بن عبد الله من قصيدة نيف على سبعين ومائتى بيت:

كل مدح فى غيركم فمثاب	ما أثيبت عبادة الأوثان
هاكها، لا أقول ذاك مدلا	قول ذى نخوة بها وامتان
بين أثنائها مديح نفيس	من لبوس الملوك والفرسان
ذو قواف كأنها حلق الأصد	اغ فى البيت من خدود الغوانى
راق معنى ورق لغظا فيحكى	رائق الخمرى رقيق الصحان
إن تكن سهلة القوافى فليست	فى المعانى بسهولة الوجدان
فابتذلها فى يوم لهوك واعلم	أنها بعد من ثياب الصبيان
وأبسط العذر فى ارتخاص القوافى	وأتباعى سهولة الأوزان

أنت أجاتنى إلى ما تراه بالذى فىك من فنون المعانى
 أى وزن وأى حرف روى لهما بالمديح فىك يدان
 ضاق عن مآثراتك الشعر إلا فعلات مفاعل فاعلان
 ليس مدح يفى بمدحك إلا صلوان المليك فى القرآن
 لا ولا حمد كفاء نعماك إلا حمد سبع من الكتاب مثان
 أو كما قال لأبى القاسم التوزى الشطرنجى من قصيدة ناهزت مائة
 وخمسين بيتاً:

ولك العذر مثل قافيتى فى لك اتساعاً فإها كالفضاء
 وتأمل فإنها ألف المد لها مدة بغير انتهاء
 وله رأى فى إطالة الشعراء وإطالته يقول فيه:

كل امرئ مدح امرءاً لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه
 لولم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه
 غيرى فإنى لا أطيل مدائحى ألا لأوفى من مدحت ثناءه
 وأعد ظلماً أن أقل مديحه عمداً وأسخط أن أقل عطاءه

على أنه كان يستريح إلى الإطالة كما يستريح "الجواد الكريم" إلى سعة
 المضمار، لأنها تشبع لذة القدرة على النظم والتمكن من اللغة وتنفى ظنه
 العجمة التى كانوا يعيرونه بها ويتهمونه فى شعره من أجلها . . فلغبطة فى
 نفسه - لا لإرضاء الممدوح وحده - كان يركب القوافى الصعبة ويتعمد
 رياضة الحروف العصية، فيذل له أعصاها حتى الثاء والحاء والذال والزاي
 والطاء والغين والهاء وغيرها من الحروف النادرة فى الروى الناقصة فى شعر
 أقدر الشعراء، وكانت فيه غيرة القول ونخوة المناقسة وهمة الوثوب إلى
 الغاية. فكان هذا "الجواد الكريم" يأرن للسباق كلما مرت به خيل السباق!

فإذا سمع الكلام الجيد لم يبرح أن يعارضه بكلام من بحره وقافيته ومعناه، ولم ينس أن يجرب قوته إلى جانب كل قوة ويحرك شاعريته إلى جانب كل شاعرية. ففي ديوانه معارضات كثيرة للنابغة وأبي مسلم وأبي نواس والحمدوني ودعبل وغيرهم ممن تروى لهم الأبيات المستحسنة ولا حكم المأثورة: ومثل هذا لا يقصر في المضمار إذا نشطت القريحة وتفتحت أشواط الكلام.

وجه هذا للمعارضة وتجربة القدرة هو الذي كان يدعو إلى النظم في هذا المعنى أو ذاك من المعانى الطريفة التي كانت تروقه في شعر بعض الشعراء. كالمثائق المغرم باللبس الجميل يستملح الكساء على لابسه فيود لو يكون له كشاء من طرازه وصفه ولكنه لا يفكر في سرقة واغتصابه، مثال ذلك: قال أبو تمام:

غربته العلى على كثرة الأهـل فأضحى فى الأقربين جنيئاً
فأعجب هذا المعنى ابن الرومى فقال فيه:

رب أكرومة له لم نخلها قبله فى الطباع والتركيب
غربته الخلائق الزهر فى الناس وما أوحشته بالتغريب
وقال:

أعاذك أنس المجد من كل وحشة فإنك فى هذا الأنام غريب
وقال:

فأنس الله نفساً أنت صاحبها فإنها من معاليها بمغترب
.....

لولا عجائب لطف الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب
وقال:

وحيد فريد في المجاهد آنس بوحدته مستأثر بالفضائل
الله يكلؤه والله يؤنسه فإنه بعالیه قد اغتربا
ويروى صاحب الأغاني بيتاً آخر نظر إليه ابن الرومي مثل هذه النظرة إذ
يقول إبراهيم بن العباس:

لفضل بن سهل يد تقاصر عنها الأهل
فباطنها للندی وظاهرها للقبيل
فيقول ابن الرومي:

أصبحت بين خصاصة ومذلة والمرء بينهما يموت هزيلة
فامدد إلى يدًا تعود بطنها بذل النوال وظهرها التقبيل
وجاء في الجزء الثالث من زهر الآداب أن الحسين بن الضحاك أنشد أبا
نواس قوله:

كأنما نصب كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك

فنعر نكرة منكراً. فقال له الحسين: مالك؟ فقد رعتني! قال هذا المعنى
أنا أحق به منك، ولكن ستري لمن يرى. ثم أنشده بعد أيام:

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكباً

قال صاحب زهر الآداب: "وقال ابن الرومي فكان أحسن منهما:

أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس

فكأنها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس

فهذه المأخذ القليلة جداً في شعره تعاب ولكنها أخلق بأن تعد من
المعارضة والمساوقة ولا تعد من السرقة والغضب. أو هي على كل حال ليست
من سرقة المعدم الذي لا رزق له إلا غيره. لأنها لو سقطت من شعره جملة

وسقط معها عشرة أضعافها لما نقصت ثروته ولا مست قدرته على التوليد والابتكار أقل مساس. ولو جازت الماقصة في هذا الباب لكان ابن الرومي دائماً طالباً ولم يكن مديناً مظلوماً، لأن ما أخذه من الشعراء أقل بكثير مما أخذه منه الشعراء.

وهناك المعاني الشائعة والنكات الشعبية العامة التي ليست لأحد ولكنها لكل أحد. أي التي يأخذ منها كل إنسان ويصيف إليها كل إنسان، أو التي هي كالهواء يستأوى منه نصيب من يشاء. فمن هذه المعاني الشائعة حتى في هذا الجيل وحتى بين الأميين الذين لا يقرأون الشعر والأدب أن اللحية تشبه بالمخلاة. وينسب إلى سعيد بن وهب في كتاب الوزراء والكتاب أنه قال في قصة لا محل لذكرها هنا:

قل لمن رام بجــــــــــــــــهل مدخل الظبي الغرير
بعد ما علق في خـد به مخلاة الشعير
ليته يدخل إن جا من البساب الكبير

وفي كنيته عن اللحية "بمخلاة الشعير" على هذه الصيغة ما يفيد أن النكتة "معهودة" وأن الإشارة إليها على هذا النحو غمرة مفهومة، فمن الخطل في النقد أن يقال أن ابن الرومي عمد إلى بيت سعيد بن وهب فسرقه حين قال:

علق الله في عذاريك مخلاة ولكنها بغير شعير

فإن سعيد بن وهب وابن الرومي في هذا الاقتباس يستويان، ويزيد ابن الرومي بتصرف جديد في المعنى .. وهو أن المخلاة فارغة!

وقد يلحق بهذا قول صاحب الصناعتين بعد ما أورد البيتين الآتين مثلاً للمبالغة في الهجاء:

يقترب عيسى على نفسه وليس بيساق ولا خالد
 فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد
 فهو يقول: "والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى وإنما أخذه
 مما حكاه أبو عثمان . . أن بعضهم قبر إحدى عينيه وقال أن النظر بهما في
 زمان واحد إسراف" فصاحب الصناعتين أصاب حين نفى ابتكار ابن الرومي
 للمعنى ولكن من تراه أولى منه بفضل الابتكار. ولقد كان ابن الرومي يخطئ
 لو أنه عدل عن نظم معناه هذا لأن أبا عثمان سبقه بتلك الحكاية، فحسبه منه
 أنه تصرف فيه وأنه مسح المبالغة عنه، لأنه لم يقل أن "عيسى" ينفس من
 منخر واحد ولكنه قال أنه لو استطاع لفعل!

لكن الخدقة التي لا يقاس إليها شيء من هذا هي زعم بعض النقاد أن
 ابن الرومي سرق البيتين اللذين أنشأهما قبيل وفاته، وهما:

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار
 والناس يلحون الطبيب وإنما خطأ الطبيب إصابة المقدار
 فأبو عبد الله بن عبدوس الجهشياري صاحب "كتاب الوزراء والكتاب،
 يروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: "إذا نقصت المدة كان
 الهلاك في العدة" ثم يزعم أن ابن الرومي سرق البيتين من هذه الكلمة . .
 وصاحب زهر الآداب يزعم أنه أخذهما من يحيى بن خالد حين "دخل على
 الرشيد فأخبر أنه مشغول فرجع فبعث إليه الرشيد" ختنتي فاتهمتني. فقال إذا
 نقصت المدة كان الحتف في الحيلة. والله ما انصرفت إلا تخفيفاً".

ولا نظن أن عصرًا مضى من عصور الإسلام خلا من أناس يؤمنون بأن
 الحذر لا يغني عن القدر، أو يقول عامتهم كما يقول العامة في زماننا "وقت
 القدر يعنى البصر". فقول ابن الرومي أن "خطأ الطبيب إصابة المقدار" إنما
 هو عقيدته لا يزعم أحد أنه سرقها إلا إذا زعم أن المسلم في هذا العصر

يسرق عقائده من المسلمين فى العصور السابقة! ثم يبقى بعد ذلك أن قوله "خطأ الطيب إصابة المقدار" هو أبلغ تعبير جديد عن ذلك المعنى القديم. وما كان النقاد ليتورطوا فى مثل هذا النقد لولا أن التعسف فى إظهار السرقات كان فى زمن من الأزمان - أو فى زمن الجمع والتأليف - آتتهم على سعة الرواية والعلم بأقدار الشعراء.

وتلاحظ فى صناعة ابن الرومى لازمة الأفعال المزيده والمشتقات التى يستخدم منها من جميع الصيغ والأوزان: فأسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان وصيغ التفضيل والمبالغة والصفات المشبهة والمصادر تكثر فى شعره كثرة لم نلاحظها فى شعر غيره، ونحسب أن الإفراط فى استخدام المشتقات والأفعال المزيده هو الوسيلة التى لا بد منها للشاعر العربى الذى يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ويتدرج به فى مختلف درجاته. إذ ليس فى اللغة العربية ظروف كالظروف التى يشتقها الإفرنج من معظم الصفات والأسماء بغضافة صغيرة فى أول الكلمة أو فى آخرها فتدل على المعنى المقصود وتدل كذلك على اختلاف الدرجة والقوة فى أداء ذلك المعنى. فإذا أراد الشاعر العربى أن يلتفت إلى هذه الفروق فلا بد له من الاستعانة على ذلك بالمشتقات والأفعال المزيده كما كان يفعل ابن الرومى. إلا أنه كان يسرف فى جمعها معاً حتى تنبو بها الأذن فى بعض الأبيات. كقوله:

صاغة صواغة صيغاً بدعاً لم تلق فى خالد

أو قوله:

أبصر بيضاء فى القذال فلا نفر كنفر رايته نفرة

أو قوله "

يترك بالحوول حول حولها وهو سواء وموق مائفها

أو قوله:

قلت أن تغلبوا بغالب مغلو ب فحسبى بغالب الغلاب

وهى ركافة منه كان ينساها فى استطراده وربما كان يهونها عليه
وسواسه . لأن طبيعة الموسوس لا تنفر من التكرار كما تنفر منه سائر الطبائع .
على أنه كان يجمع بعض المشتقات والحروف المتشابهة المخارج فتساغ - وقد
تستحسن - فى أصعب القوافى كما قال فى الجيمية :

سلام وريحان وروح ورحمة عليك ومدود من الظل سجسج
ولا برح القعاع الذى أنت ربه يرف عليه الأبحوان المفلج
فإن للراء والحاء " راحد" فى القلب تزداد بالتكرار وتمهد لما بعدها من
الظل المدود والتضعيف المقبول فى هذه القافية العصية .

أو كما قال من قافية الخاء :

يا صارخاً فى جموع ليس تصرخه للظالمين غداً فى النار مصطرخ
أو من قافية الفاء :

ومنعم كالماء شفى ذا الصدى كشفائه ويشف مثل شفيفه

ويوقعه الاستطراد - ولك أن تقول الاستغراق فى المعنى - تارة فى
إهمال اللفظ وتارة أخرى فى الأساليب الثرية التى لا ينفسح غيرها للإسهاب
والإطناب والتفصيل والتفريغ والمراجعة والاستدراك . فينظم فى هذه الحالة
وكأنه ينثر، إلا أنه لا يخو من الشاعرية ولا يسف إلى طبعة "المتن" المنظوم و
"الألفيات" التى ليس فيها من الشعر إلا أنها مورونة مقفاة .

ومع هذا تستطيع أن تقول أنه لم يجعل اللفظ شغلا شاغلا فى صناعته
ولم يحفل به إلا لأداء المعنى الذى يريده . فيخيل إليك وأنت تطرد فى قراءته
أنه يرتجل القصائد ارتجالاً ويفيض بها فيضاً لطاوعة لفظه وغزارة مدده . فهو
يجيد فى تركيب أبياته وأحكام قوافيه ولكنه لا ينتزع الإجادة بالجهد

والتربص ، وما عليه إلا أن يعنى ما يقول فيقول ما يعنى بغير إخلال ولا التواء ، وما عليه إلا أن يرسم فيجىء البناء على ما رسم وتقوم الأركان على ما دعم .

ومن الشعراء من تلمح الكلمة فى قصيدة وكأنها تمن على الشاعر بفضل وتستطيل بدالة . لأنها أطاعته ولبت رجاءه ورضيت بمقامها فى حظيرته . فإذا بحثت عن أمثال هذه المفردات والتراكيب فى قصائد ابن الرومى فليست واجدها هناك ، لأن كلماته تقبل إلى مواضعها وكأنها تعلم أن الفضل فى مقامها للشاعر لا لها وأن الدالة فى اختيارها له لا عليه ، ومن ثم لم يشغل باللفظ ولم يدل على معناه أثر الجهد فيه ، وبهذا سلم من لعب الجناس اللفظى والمحسنات المموهة مع أنه نشأ فى العصر الذى نشأت فيه هذه المحسنات ، وعجيب هذا منه وهو المتطير الذى كان يلقي باله إلى أقل تجانس فى الكلمات وأضعف تشابه فى الحروف ليسترخج منه النذر والبشائر ويعلق عليه القنوط والأمل ، ولكنه عجيب فى الظاهر دون الحقيقة . لأنه إنما كان يبالى بالكلمات حين كان يأخذها مأخذ المتطيرين ، وهى حينئذ لها معنى عنده ومن ورائها نبأ وفيها شعور . فليست هى خواء ولا تمويها ولا بهرجاً زائفاً كبهرج العابثين والمزوقين ، إنما كان يجانس لمعنى يراه هو ويراه من يتطير مثله ولا يجانس لتزويق فارغ ولهو سخييف ، فإذا لم يكن متطيراً فلا جناس ولا أكثرات باللفظ إلا لما فيه من معنى ظاهر مستقيم وما له من فصاحة ونضارة ، أو يتفق له جناس اللفظ كما كان يتفق للشاعر الجاهلى والشاعر المخضرم قبل عهد التنميق والصناعة ، فلا غرابة فى أن تجد له أو لشاعر مخضرم مثل هذا البيت :

فيسيك بالسحر الذى فى جفونه ويصيك بالسحر الذى هو نافته

أو مثل هذا البيت :

نصيب إذا حكمت وإن طلبنا لديك العرف كنت حيا تصوب

أو مثل هذا البيت :

ليس ينفك طيرها فى اصطحاب تحت إظلال أيكها واصطخاب
وهكذا كان فى كل تجنيسه الذى لا تعسف فيه وليس هو بالكثير البارز
فى ديوانه الكبير . فإذا جنس فى غر ذلك فهو عابث متعمد للعبث وليس
بملقق محسنات ولا بطالب تزويق كما قال :

لو تلففت فى كساء الكسائى وتلبست فروة الفراء
وتخللت بالخليل وأضحى سيبويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبى الأسو د شخصاً يكنى أبى السوداء
لأبى الله أن يعبدك أهل الع م إلا من جملة الأغبياء
فالذى يقرأه هنا لا يخطر له بته أنه يزوق ويزخرف ولا يشك لحظة فى
أنه يعبث ويهزل ، وأنه لا يحاول أن يبيع الناس بهرجاً بثمان ذهب وعرضاً
بثمان جوهر .

أما ما يستشهد به البديعيون من كلامه كقوله فى غير الجناس :

أراؤكم ووجوهكم وسيوفكم فى الحادئات إذا دجون نجوم
فيها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجى والأخريات رجوم
فهو أقرب إلى التقسيم الفلسفى منه إلى محسنات اللفظ وترصيعاته .

وغنى عن القول أننا لم نقصد بما تقدم أن ابن الرومى كان على سداجة
الجاهليين والمخضرمين فى صوغ الشعر وفهم فنون البلاغة . فإن هؤلاء كانوا
يأتون بالقول البليغ ولا يعرفون علته ، وكانوا يطربون للشعر ولا يتوخون
مذاهب نقده ، وليس فى وسع شاعر عباس أن يكون كذلك بعد ما أولع القوم
بالبحث فى جميع العلل والأسباب واصطلحوا فى البلاغة على الحدود
والأسماء وخرجوا من حالة " العفو " إلى حالة " الوعى " ومن سهو اللجنة التى

كانوا غافلين فيها عن النعيم والعذاب والحجل والعيب إلى يقظة الدنيا التي يؤخذون فيها بالتكاليف ويدركون فيها المحاسن والعيوب، وابن الرومي أولى ألا يكون على تلك السذاجة الجاهلية أو المخضرمة وألا يسهو عن محاسن كلامه وعيوبه وهو الذي لم يسه قط عن شيء فيه ولم يكن له من هم إلا أن يحصى خطرات ذهنه وخلجات فؤاده، فهو شاعر ناقد ويلبغ له مذهب في البلاغة ورأى في المعاني وحجة في الاختيار. ونوادره في ذلك قليلة ولكن النادرة التي ننقلها بعد كافية للإبانة عن وجود هذه الملكة فيه وعملها في نقد كلامه كلام غيره. قيل أنه شمع هذه الأبيات:

أيها الظبي المليح القند مجدول مهفهف
أنا من ميلك في مشد يك مرعوب مخوف
لا تميلن فـسـانـي خائف أن تتقصف

وهي لابن أبي فزن. فقال في البيت الآخر: "إنما أراد منه أنه يميل من لينه ونعومة أعضائه فأسرف حتى أخطأ، وذلك أنه جعل اللين المفرط يتقصف. وإنما كان ينبغي أن يقول لو عقد لا نعقد من لينه فضلا عن أن يميل وهو سليم من التقصف" ثم أسرع إلى معارضة القائل بهذين البيتين:

أيها القائل إنني خائف أن تتقصف
ليس هذا الوصف إلا وصف مصلوب مجفف

فملكة الابتكار في ابن الرومي كانت مصحوبة بملكة الانتقاد، فصاحته كانت فصاحة الذي يحاسب نفسه ويحمل تكليفه لا فصاحة غير المكلفين في جنة السهو والتوفيق!

كذلك لا يفهم من سهولة شعره وتدفعه وأخذ بعضه بأطراف بعض أنه كان قليل التهذيب له والرجعة إليه. فربما فرغ من القصيدة وأفضى بها إلى ممدوحه ثم عاد إلى نقيحها والزيادة عليها وردها مرة أخرى كما فعل في

المهرجانية التي تتبعها وأطالها وكتب في ذلك يعتذر إلى عبيد الله بن عبد الله :

قصيدة كرها مثقفها عليك إذا ثقفت على مهل
أعجلها الوقت عن رياضها فأقبلت ريضاً على عجل
لم أحتشم كرها عليك ولا سدى منها مواضع الخلل
لأننى عالم بأنك لا تعت ب فيما أصلحت من عمل
وليس مثلى ينام عن خلل فى مدح ممدوحه ولا زلل
على أنه - لطول رياضة الكلام الموزون - قد أسلست له طريقة فى
النظم يقسر بها المعنى على الظهور ولو اضطر إلى الحشو واللف والاعتراض
فلا تشعر إلا وقد استدار له البيت على أحسن تركيب وأصبح الحشو فى يديه
حسناً يزيد المعنى ولا يعيبه . فإذا أراد أن يقول " لا تكذب الأخبار بالهوى "
ولم يساعده الوزن قال :

لا تكن بالهوى تكذب بالأخبار ر حتى تهين ما لا يهان
فأكسب المعنى قوة لم تكن له فى عبارته البسيطة .

لأنه حين صاغ البيت هذه الصياغة كأنما ينهى عن "خلق" التوكيد لا
عن "فعل" التوكيد مرة واحدة أو مرات . فمعنى "لا تكن مكذباً الأخبار
بالهوى" غير معنى "لا تكذب الأخبار بالهوى" . لأن العبارة الأولى تفيد
زيادة فى النفى لا تدخل فى مدلول العبارة الثانية . تفيد النهى عن "طبيعة"
التوكيد أو عن أن "يكون" الإنسان مكذباً ، ولا تقتصر على استنكار
التوكيد فى هذه الحادثة أو فى تلك .

وإذا أراد أن يقول أن اليوم أفضل الطير وحال الوزن دونن هذا المعنى
البسيط قال :

واعتبر أن أفضل الطير، في الطير، وفينا، كروسات اليوم.

فبلغ في إظهار فشل البومة ما لا تبلغه العبارة الأولى. لأنه بين فشلها بالنظر إلى مقاييس الطير وبالنظر إلى مقاييس بنى الإنسان، فهي فاشلة كما يراها نظائرها في عالم الطيور وفاشلة كما تراها نحن في عالمنا الإنسانى، وذلك معنى لا تجده في قول من يقول: أن البومة أفضل الطوائر، وتلك كانت طريقته في الحشو "المبارك" المقبول، وفي تدوير النظم حتى يستدير له على أحسن تقويم.

وقد كان ابن الرومى كأبناء عصره يقدم الغزل بين يدي مدحه ووصفه جرياً على سنة لم يكن في ثقافة عصره ما يدعو إلى استغرابها والنظر في تنقيحها، إلا أنه يعمل هذه السنة ويتصرف في تقديم الهجاء بالغزل فلا يقصره على الوصف والمديح، فيخرج بذلك بعض الخروج من حكم التقاليد والمحاكاة العمياء ويختار لصناعته بعض الاختيار.

ألم تر أننى قسبل الأهاجى أقدم فى أوائلها النسيباً
لتخرق فى المسامع ثم يتلو هجائى محرّقاً يكوى القلوباً
وقد يتصرف غير هذا التصرف كما قال:

وأشغل قريضك بالنسب وبالفكاهة والمزاح
كذلك كان يحكى أبناء عصره فى تصعيب اللفظ وتعمد الغريب حين
كان ينظم فى الطرود ووصف الأسد وما إليه. لأن الشعراء العباسيين جعلوا
الطرود خاصة وعرضاً للبدواة الشعرية ولافحولة العربية. فكانوا فى ذلك على
حد ما يقال عربياً أكثر من العرب وجاهلين أكثر من الجاهلين.

أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأً فلفظ عالم بالنحو مطلع على
شواهد العربية ولا سيما فى القرآن. ومن هنا لم يذكر كلمة "أشياء" إلا

ممنوعة من الصرف، وهى مصروفة فى قول القياسيين من النحاة لأنها جمع شىء. فهى أفعال جمع فعل وليست فعلاء مؤنث أفعل التى تمنع من الصرف، فمن المواضع التى وردت فيها الكلمة قوله: " حرمت بالمشيب أشياء حلت " وقوله: " قبحاً لأشياء يأتى البحترى بها " وقوله:

فيك أشياء لو وجدن قديماً نظمتها الملوك فى التيجان
وقوله:

فيك أشياء من يواليك مسر ور بها والعدو منها مغيز
وقوله:

وإليك الشكاة منها ومن أشد ماء تبتز ذا الحجا معقوله
وقوله:

يا حور ما للجيبب يفعل بى أشد ياء لا يستحقها الحرج
وقوله:

وفيك أشياء صالحات حماكها الله والرسول

وإنما تابع المفسرين فى هذا ولم ينباع القياسيين من النحاة لأن كلمة أشياء وردت فى سورة المائدة ممنوعة من الصرف، إذ جاء فى الآية: " يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم " بفتح الهمزة فى أشياء، وتعليل المفسرين لذلك " إن أشياء هنا اسم جمع كطرفاء غير أنه قبلت لامة فجعلت لفعاء، وقيل أفعلاء حذف لامة - جمع لشىء كهين أو شىء كصديق فخفف: وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هى كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ، فلم يكن ابن الرومى ممن يسهل وقوعهم فى الخطأ النحوى وإلا لظهر منه ذلك فى مواضع شتى مع إطالته وإكثاره وجرأته على تدليل النحو لمراه. ونقول جرأته لأننا لا نعد من خطأ الجهل قوله:

إذ لا يخفى على المبتدئ أن "أيا" ضمير فصل يتصل بالضمائر الموصولة ولا يتصل فى الكلام الفصيح بالأسماء. فأبن الرومى إذا وصل الضمير المفصول بالاسم لا يفعل ذلك جهلا بالقاعدة التى يعلمها المبتدئون وإنما يفعله وهو مجترئ عليه عالم بمكان هذه الكلمة من الخطأ والصواب، وعلى ذكر التجوز فى صرف الممنوع ومنع المصروف نقول أن ابن الرومى كان من أقل الشعراء تجوزاً فى "عروضه" وأكثرهم حرصاً على أوزانه. ولا بأس بأن نذكر له هنا بيتين قالهما فى مرض وفاته ورواهما عنه أبو عثمان الناجم وهما:

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك للعشيرة دون لومك
تمتع من أخيك، فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك
فقد ذكرهما المعرى فى رسالة الغفران فعاب عليهما أنهما مقيدان وقال "وما علمت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيداً إلا فى بيت واحد يتداوله رواة اللغة، والبيت:

كان القوم عشوا لحم ضأن فهم تعجن قد مالت طلاهم

وهذا البيت مؤسس، والذى قاله ابن الرومى من غير تأسيس والحق أنه لا خلل فى وزن البيتين من حيث العروض، وإنما كان المعرى فى نقده هذا أشبه بالفقهاء منه بالأدباء، ولو اختل البيتان أشد خلل لما قيست بهما صناعة ابن الرومى يلقى به إلقاء وهو وجود بنفسه

وقد نلاحظ على ابن الرومى تعبيرات كالتى تسمى فى عصرنا هذا بالتعبيرات الإفرنجية فى مثل البيت:

كما لو هجاكم شاعر حل قتله كذاك فأوفوا مادحًا دية القتل

وقد يلاحظ ذلك في أكثاره الهتفات مثل قوله "ضلة! ضلة" و"سوأة سوأة" و"في سبيل الشيطان منك نصيبى" إلى أشباه ذلك من اللفظات الكثيرة فى تعبيرات اللغات الأوروبية. فيرد على الخاطر أنه كان لهذا - يعرف الإغريقية ويتأثر بها فى أسلوبه، أو يرد على الخواطر أن هذه التعبيرات من أثر العجمة فى سليقته والعادة فى لسانه. ولكنها ملاحظة لا تستلزم هذه النتيجة ولا نستطيع أن تعززها بملاحظات أخرى من قبيلها. ومن السهل جدًا أن نقول أن أمثال تلك التعبيرات المترجمة ومعالجة التديلات المنطقية فى كلامه ومساجلاته، وأن الهتفات مألوفة فيمن كان له مزاج كمزاجه المتفز عربيًا كان أو أعجميًا بلا خلاف. ذلك أسهل من القول باللغة الأعجمية الذى استضعفناه فيما تقدم من الكلام على تعليم الرجل ومعلوماته.

فى أى باب من أبواب الشعر كان ابن الرومى يجيد خاصة؟

سؤال لا بد أن يخطر لنا فى معرض الكلام على صناعته وأسلوبه، وأرى أن الكثيرين سيقولون - أو قد قالوا - أنه هو باب الهجاء لأنه اشتهر به وشاع أنه مات بسببه، فلنعلم إذن أنهم مخطئون فى هذا الحكم لأن ابن الرومى كان يجيد فى أبواب الشعر كلها على حد سواء ويعطى قصائده جميعًا بمقدار واحد من عنايته وإتقانه.

وخذ مثلاً اقواله فى الحكمة وهى أقل ما اشتهر به تجد له مئات من الأبيات التى تسيّر مسير الأمثال وتخرج من عداد تلك الأفكار المطروقة التى يتفهبق بها من يحبون الاشتهار بالببيت الحكيم والمثل السائر، ولو أننا رجعنا إلى أبياته التى مرت بنا فى هذا الكتاب لما ألفينا بينها تفاوتًا فى الطبقة بين غرض وغرض وباب وباب، وإنما اشتهر بالهجاء لأن الجاء أشهر وأسير لا

لأنه يجيد فيه أكثر من إجادته فى المديح أو فى الغزل أو فى الصفات، فلو أن الألسن تتساير بالوصف البارع كما تتساير بالهجاء اللاذع لغطى وصف ابن الرومى على هجاءه لكثرة ما قال وأجاد فى الوصف حتى خلال قصائد الهجاء .

وأغرب من هذا الاستواء فى طبقة القول أنك تقرأ الأبيات التى مرت بك فى هذا الكتاب فتحسب أنها نظمت كلها فى عمر واحد ولا تدرى أيها شعر الشباب وأيها شعر الكهولة والشيخوخة إلا ما يندب فيه شبابه ويتبرم بسنه، فانظر مثلاً إلى الأبيات التالية:

قل لا يوب والكلام سجال	والجوابات ذات يوم تدا
اسكنوا بعدها، فلا تذكروا ال	وم، حياء. فأنتم الأجال
أنا شؤمى فيما تقولون عزا	ل، ولكن شؤمكم قتال
بالذى أدرك المؤيد منكم	وابن سعد أن تضرب الأمثال
زرتموه والصالحات عليه	مقبلات فأدبر الإقبال
حين درت له أفويق دنيا	ه دلفتم له فكان الفصال
أن شؤماً حلت به عقدة الملد	ك لشؤم تزول منه الجبال
ليس بدعاً من الحوادث أن يعز	ل وال وتخفق الأمال
إنما البدع أن تزول أمور	لم يكن يهتدى إليها الزوال
كالذى حاق بالمؤيد منكم	بعد ما نوطت به الأمال
ذلك الشؤم يا بنى أم شيخ	يمكن القائلين فيه المقال
ذاك شؤم فيه سمام الأفاعى	ناجز النقد، ليس فيه مطال
ذاك شؤم كالسيل عفى على الف	طر جلال كما يكون الجلال
ذاك شؤم لو جاور البحر يوم	ين لأمسى وليس فيه بلال

فهذه قطعة نظمها فى نحو الثلاثين من عمره، لأنها نظمت فى نكبة
"المؤيد". فقابل بينها وبين القطعة التالية التى نظمها وهو فى الخامسة
والخمسين.

كبرت وفى خمس وخمسين مكبر
إذا ما رأتك البيض صدت وربما
وما ظلمتك الغايات بصددها
أعر طرفك المرأة وانظر فإن نبا
إذا شئت الفتى وجه نفسه
أو قابل بينهما وبين هذه القطعة التى نظمها قبيل وفاته على لسان
العزیز:

أيادى بنى الجراح عندى كبيرة
هم القوم ينسون الأيادى منهم
وإن كنت قد أهملت بعد رعاية
وقلدت شغلا ضره لى معجل
أروح وأغدو فيه أنصب عامل
أيعطش أمثالى وواديك فائض
أبى ذاك أن الطول منك سجية
وأنت لم تؤثر على الحق لذة
وما زلت تختار الأمور بحكمة

وأكبر منها أنها لا تكدر
عليك، ولكن المواعيد تذكر
وأغفلت حتى قيل أشعت أغبر
سريع، وأما نفعه فمؤخر
واصفرة كفا، فكم أتصبر؟!
ويجذب أمثالى وواديك أخضر
وإنك بين الحمد بالطول تعمر
بخكم هوى، فالحق عندك مؤثر
فأفضلها الأمر الذى تتخير

فانظر حين تقرن هذه الأبيات بعضها ببعض هل ترى بينها من تفاوت
فى الصناعة أو اختلاف فى روح الشعر ونسج الكلام وطريقة التركيب وتناول

المفردات؟ فهي وغيرها من قصائده التي نظمت من العشرين إلى الستين طبقة واحدة من هذه الناحية لا تستطيع أن تتحقق فيها. مزية سن على سن ولا فترة على فترة. وتعليل ذلك صعب في الشعراء المطبوعين غير ابن الرومي، أما هو فلا صعوبة في تعليل هذا الاستواء في تركيبه والتشابه في روحه ونسجه، لأنه ينسج منم غزل واحد وبضاعة واحدة، وهي الشعور الجديد أو شعور الطفولة الفنية التي لازمتها في حياته من المبدأ إلى النهاية. فلم يتغير فيه إلا القليل بعد ما درس نصيبه من اللغة والعلم واستوفى مادته من الفن والصياغة، وكأنه الشجرة التي نضجت مبكرة وبلغت تمامها ورسخت في تربتها، فثمرتها اليوم كثمرتها بعد سنوات عشر أو بعد عشرين وثلاثين، ولا عيب في ذلك إلا أن تكون الثمرة بسرًا لا خير فيه. أما إذا كانت ثمرة جنية كأطيب الثمر في النضرة والحلاوة فالتبكير إذن أصلح من التأخير والبقاء على طبقة واحدة أحب وأكمل من التغيير.

فالكلمة الأولى والأخيرة في هذا العبقري النادر أنه كان شاعرًا في جميع حياته حيًا في جميع شعره، وأن الشعر كان لأناس غيره كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له جسمًا لا تكون بغيره حياة.
